شرح الأربعين النووية

الحديث الثلاثون

إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا

اللقاء الثالث والثلاثون

الحديث الثلاثون:

عَنْ أَبِيْ ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ جُرثُومِ بنِ نَاشِرٍ رضي الله عنه عَن رَسُولِ اللهِ –ﷺ– قَالَ: (إِنَّ اللهَ فَرَضَ فَرَائِضَ فَلا تُضَيِّعُوهَا، وَحَدَّ حُدُوداً فَلا تَعْتَدُوهَا وَحَرَّمَ أَشْيَاءَ فَلا تَنْتَهِكُوهَا، وَسَكَتَ عَنْ أَشْيَاءَ رَحْمَةً لَكُمْ من غَيْرَ نِسْيَانٍ فَلا تَبْحَثُوا عَنْهَا) حديث حسن رواه الدارقطني وغيره.

ترجمة الراوي:

أَبِو ثَعْلَبَةَ الخُشَنِيِّ جُرثُومِ بنِ نَاشِرٍ، وهو صحابي جليل شهد بيعة الرضوان، وقد شهد غزوة حنين وأرسله النبي –ﷺ– إلى قومه فدخلوا الإسلام، وقد ضرب له النبي –ﷺ– بسهمه في غزوة خيبر، روى أبو ثعلبة الخشني العديد من الأحاديث عن النبي –ﷺ–، كما روى أيضًا عن معاذ بن جبل، وروى عنه أبي عبيدة بن الجراح، ومعاذ بن جبل، وجبير بن نفير، وأبو إدريس الخولاني، وسعيد بن المسيب.... وغيرهم.

وكان أبو ثعلبة الخشني ممن يجالس كعب الأحبار، وكان دائمًا يقول "إني لأرجو أن لا يخنقني الله عند الموت كما أراكم تختنقون"، وقد توفى وهو ساجد يُصلي قيام الليل ورأت ابنته ذلك في منامها، وبعد روائيتها لهذا المنام ذهبت إليه فحركته ثم سقط على جبنه وقد علمت أنه توفى، وتوفى عام 75 هجريًا في عهد خلافة معاوية بن أبي سفيان.

منزلة الحديث:

هذا الحديث من جوامع كلمه -ﷺ-، وهو يحوي أصول الدين، وليس في الأحاديث حديث واحد أجمع بانفراده لأصول الدين وفروعه منه [الجواهر اللؤلؤية شرح الأربعين النووية].

قال عبيد بن عمير رحمه الله: إن الله عز وجل أحل حلالًا، وحرم حرامًا، وما أحل فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكت عنه فهو عَفْوٌ؛ فحديث أبي ثعلبة قسم فيه أحكام الله أربعة أقسام: فرائض، ومحارم، وحدود، ومسكوت عنه، وذلك يجمع أحكام الدين كلها [جامع العلوم والحكم].

قال أبو بكر ابن السمعاني رحمه الله: من عمل بهذا الحديث، فقد حاز الثواب، وأمن من العقاب؛ لأن من أدى الفرائض واجتنب المحارم ووقف عند الحدود، وترك البحث عما غاب عنه، فقد استوفى أقسام الفضل، وأوفى حقوق الدين؛ لأن الشرائع لا تخرج عن هذه الأنواع المذكورة في هذا الحديث، وقال أيضًا: هذا الحديث أصل كبير من أصول الدين وفروعه. [جامع العلوم والحكم].

قال ابن حجر الهيتمي رحمه الله: هذا الحديث من جوامع كلمه -ﷺ- الوجيزة البليغة؛ وذلك لتضمُّنه جميع قواعد الشرع وأحكامه وآدابه؛ إذ الحكم الشرعي إما مسكوت عنه أو متكلم به، وهو إما مأمور به وجوبًا أو ندبًا، أو منهي عنه تحريمًا أو كراهة، أو مباح، فالواجب: حقُّه ألا يضيع، والحرام: حقُّه ألا يقارَب، والحدود – وهي الزواجر الشرعية؛ كحد الرِّدَّة والزنا والسرقة والشرب –: حقها أن تقام على أهلها من غير محاباة ولا عدوان. [فتح المبين].

شرح الحديث:

((إنَّ اللهَ فرَض فرائضَ فلا تُضَيِّعوها))؛ أي: أوجب إيجابًا حتميًّا على عباده فرائض معلومة؛ كالصلوات الخمس، والزكاة، والصيام، والحج، وبر الوالدين، وصلة الأرحام، وغير ذلك.

لقد كانت أول قضيّة يتناولها الحديث بيان موقف المكلّف نحو ما يرد عليه من الأوامر في الكتاب والسنة فقال: (إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيّعوها)، إنه توجيه إلى عدم التفريط في أداء الفرائض، والفرائض هي الواجبات الشرعية التي أوجبها الله على عباده وألزمهم بها، ومنها ما يكون واجبا على كل أفراد الأمة، وهو ما يسمّى بالفرائض العينيّة، ومنها ما هو واجب على الكفاية، أي: إذا قام به من يكفي سقط الإثم عن الباقين.

فهذه الفرائض – بنوعيها – واجبة على كل مكلّف مادام مستطيعا، وإذا ورد الأمر من الله تعالى أو من رسوله -ﷺ- فلا مجال لردّه أو عدم تنفيذه؛ لأن هذا هو مقتضى إيمان العبد بالله

ورسوله، كما قال الله تعالى في كتابه: (وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ) [الأنفال: 1]، فهذه الطاعة هي عنوان العبودية والتسليم لحكم الله وشرعه.

إننا نسير في هذه الحياة لغاية، فمنا اليقظ الواعي ومنا دون ذلك، هنيئًا لمن فهم دوره في هذه الحياة فقام به وأداه، ويا لخسارة من غاب عنه ذلك الدور فسار في الدينا سير المفاليس الذين يحسبون أنهم يحسنون صنعاً. والعجب كل العجب من أناس عرفوا أنهم خلقوا للعبادة وأنهم مسؤولون عن ذلك بكل تفاصيله ثم هم لا همَّ لهم إلا دنياهم وأما آخرتهم فهي عبء عليهم لا يقومون لها إلا وهم كسالى. ليت أولئك القوم يعلمون أنهم خسروا لذة الدنيا الحقيقية وأنهم يعيشون انفصاماً داخليًّا بين ما يعملون وما أريد منهم، ليتهم يعلمون أن الأنس والسعادة والبهجة والراحة والطمأنينة في القرب من الله والتلذذ بعبادته، ليتهم يعلمون أن الشيطان سول لهم وغرر بهم فهم يستحسنون ما ليس بحسن ويستلذون ما ليس بلذيذ، ليتهم يلتفتون إلى قلوبهم بدلا من أجسادهم، فيحيونها بالإيمان العميق بالله وحبه وحب ما يحبه. ليتهم يعون أن حب الله فوق كل حب وأن قربه أشهى من كل قرب وأن وصله ألذ من كل وصل، ليتهم يتلذذون بذكره وينظرون في ملكوته ويسمعون كلامه ويشتاقون إليه ويأنسون بمعيته.

امش إلى الله سراعا في طاعاتك وإخباتك؛ ليهرول إليك في خيره ورضاه، وليكن الله تجاهك في أمورك، ومفزعك عند ملماتك، وإليه الحول والقوة عند ضعفك وعجزك.

من اهتدى بهدى الله واستعمل ما وهبه الله من مَلَكات ومواهب استعمالا رشيدا، واتجه بها اتجاه خير وصلاح؛ كان مهتديا وفائزا حقا وصدقا؛ (فَأَمَّا مَنْ أَعْطَى وَاتَّقَى * وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى)[الليل: 5 – 7]، ومن أعرض عن ذكر ربه، واستعمل ما وهبه الله من مَلَكات ومواهب استعمالا سفيها، واتجه بها اتجاه شر وفسق وفساد؛ كان ضالا وخاسرا؛ (وَأَمَّا مَنْ بَخِلَ وَاسْتَغْنَى * وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى * فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى)[الليل: 8 – 10] ،(مَنْ يُضْلِلِ اللَّهُ فَلَا هَادِيَ لَهُ وَيَذَرُهُمْ فِي طُغْيَانِهِمْ يَعْمَهُونَ)[الأعراف: 186].

من أراد محبة الله فليلزم فرائضه، ومن أراد قربه فليلذ بجنابه، ولا يضعف عن دعائه، ومنافذ القربات كثيرة؛ "فَاسْتَقِيمُوا وَلَنْ تُحْصُوا، وَاعْلَمُوا أَنَّ خَيْرَ أَعْمَالِكُمُ الصَّلَاةَ، وَلَا يُحَافِظُ عَلَى الْوُضُوءِ إِلَّا مُؤْمِنٌ، الصَّلَاةُ نُورٌ، وَالصَّدَقَةُ بُرْهَانٌ، وَالصَّبْرُ ضِيَاءٌ، وَالْقُرْآنُ حُجَّةٌ لَكَ أَوْ عَلَيْكَ، كُلُّ النَّاسِ يَغْدُو فَبَائِعٌ نَفْسَهُ فَمُعْتِقُهَا أَوْ مُوبِقُهَا"، هذه مقومات النجاح لمن أرادها، وبراهين الفوز لمن تمسك بها؛ "فَمَنْ خَافَ أَدْلَجَ، وَمَنْ أَدْلَجَ بَلَغَ الْمَنْزِلَ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ غَالِيَةٌ، أَلاَ إِنَّ سِلْعَةَ اللهِ الجَنَّةُ".

((وحدَّ حُدودًا))؛ أي: أوجب واجباتٍ وحددها بشروط وقيود ((فلا تَعتَدوها))؛ أي: لا تتجاوزوها.

ولما كان مدار التكليف كله على فعل المأمور وترك المحذور، والتقيد بأحكام الشريعة، والالتزام بما ورد فيها، والوقوف عند حدودها وعدم تجاوزها، أكد النبي –ﷺ– ذلك بقوله: (وحدّ حدودا فلا تعتدوها).

والحدود جمع حدّ، والحدّ في اللّغة: الحاجز بين الشّيئين الّذي يمنع اختلاط أحدهما بالآخر، وحَدُّ الزّنا والخمر سمّي به: لكونه مانعًا لمتعاطيه من معاودة مثله، ومانعًا لغيره أن يسلك مسلكه؛ وسمّيت حدود الله: لأنّها تمنع أن يدخل فيها ما ليس منها، وأن يخرج منها ما هو منها، ومنها سمّيت الحدود في المعاصي؛ لأنّها تمنع أصحابهما من العود إلى أمثالها. فحدود الله هي: شروطه، وقيل: أحكامه وقيل: معاصيه، وهي محارمه التي منع عباده من ارتكابها وانتهاكها.

⇦وأما معنى الحدود في الاصطلاح الشرعي: فهي العقوبة المقدرة شرعا، الواقعة على المرء بسبب معصية، عقابا له على انتهاك حدود الله، ومنع غيره من ارتكابها والوقوع في مثلها، ومن المعلوم أيضا أن الحدود مشروعة في الكتاب والسنة والإجماع....

لما كانت النفوس النازعة إلى الشر والفساد بحاجة إلى ما يكبح جماحها، ويخفف من حدة الشر فيها، حتى تقلع عن غيّها، وتثوب إلى رشدها، فقد فرض ربّ العالمين العليم الحكيم الرحيم الخبير: حدودًا وعقوبات متنوعة، بحسب الجرائم، لتردع المعتدي، وتصلح الفساد، وتكفر عن المجرم جريمته، فينجو في الآخرة؛ لأن الله لا يجمع له بين عقوبتي الدنيا والآخرة، ذلك تقدير العزيز العليم.

وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله مجموعة من الأفعال يحرم الإقدام على ارتكابها وفعلها من الرجل والمرأة، وهي ما تعرف بحدود الله أي الأفعال الموجبة للحد والعقوبة، وهي: قطع الطريق، والسرقة، والزنا، والقذف، وشرب الخمر، والبغي؛ فلكل واحدة من هذه الأفعال المشينة العقوبة التي حددها الشرع الحنيف.

ومن هذه الجرائم التي فرض الله لها عقوبات محدّدة: جريمة الزنا، والتي هي من أفحش الجرائم وأبشعها، فهي عدوان على الشرف والكرامة، ومقوّضة لنظام الأسر والبيوت، وضياع للأنساب، وانتهاك للأعراض، وتذهب بكيان الأمة، وقد قرر الشارع لهذه الجريمة النكراء عقوبة الجلد للبكر والرجم للثيب من الرجال والنساء.

ومن هذه الجرائم أيضًا: جريمة القذف للمحصنين والمحصنات، وهي من الجرائم التي تحل روابط الأسر، وتفرق بين الرجل وزوجه، وتهدم أركان البيت، فقرر الشرع عقوبة القاذف ثمانين جلدة بعد عجزه عن الإتيان بأربعة شهداء، وذلك كي لا تخدش كرامة إنسان، أو يجرح في سمعته، فالشرع يحافظ على سمعة المسلم، وعدم إهانة كرامته.

وأما السرقة، والتي هي اعتداء على أموال الناس، وهي من أحب الأشياء إلى النفوس، فقد قرر الشرع لهذه الجريمة عقوبة القطع، حتى يكون عبرة لغيره بالكف عن اقتراف هذه الجريمة، فيطمئن كل فرد في المجتمع على ماله ونفسه وأهله.

والخمر، جريمة تفقد الشارب عقلَه ورشده، وتحمله على ارتكاب كل حماقة وفحش قبيح ومنكر.

⇦وكفى بها أنها أم الخبائث، ولذا كانت عقوبته الجلد والضرب بالنعال ليكون ذلك رادعًا له، ولغيره؛ من اقتراف مثل هذه الجريمة المفسدة للدين والأخلاق، تصل بصاحبها ومتعاطيها إلى التخنث والدياثة، وكفى بها من ضعف وهوان، مفتاح شر لجرائم أعظم....

عن عثمانَ بنِ عفانَ قال : "اجتنِبوا الخمرَ فإنها أمُّ الخبائثَ ، إنه كان رجلٌ ممن خلا قبلَكم تعبَّدَ، فعلِقَتهُ امرأةٌ غويَّةٌ، فأرسلتْ إليه جاريتَها، فقالتْ له : إنَّا ندعوكَ للشهادةِ، فانطلق مع جاريتِها، فطفِقَت كلما دخل بابًا أغلقتْهُ دونَهُ، حتَّى أفضَى إلى امرأةٍ وضيئةٍ، عندها غلامٌ وباطيةُ خمرٍ، فقالت : إني واللهِ ما دعوتُكَ للشَّهادةِ ، ولكنْ دعوتُك لتقَعَ عليَّ، أو تشربَ من هذه الخمرةِ كأسًا، أو تقتلَ هذا الغلامَ، قال : فاسقيني من هذا الخمرِ كأسًا، فسقَتْهُ كأسًا، قال : زيدوني، فلم يرِمْ حتَّى وقع عليها، وقتلَ النفسَ، فاجتنِبوا الخمرَ، فإنها واللهِ لا يجتمعُ الإيمانُ وإدمانُ الخمرِ، إلَّا لَيوشكُ أنْ يُخرجَ أحدُهما صاحبَهُ !". صحيح النسائي

هذه الحدود والعقوبات جعلها الله مناسبة لجرائمها، وقد شرعها الله رحمة بالعباد، ليتحقق لكل فرد من أفراد المجتمع الأمن على نفسه وعرضه وماله وسمعته وحريته وكرامته، وإن كل عمل من شأنه أن يعطل، أو يؤخر إقامة الحدود، فهو تعطيل لأحكام الله ومحاربة له؛ لأن ذلك من شأنه إقرار المنكر وإشاعة الشر والفساد، وتقتيل البشر لعدم إقامة الحدود، وفوات للحقوق، وضياع للأوامر الشرعية.

المؤمن الصادق يتغلب على عواطفه الجامحة بإخضاعها لأمر الله –تعالى– وسنة رسوله –ﷺ–، ويحذر من الشفاعة لإسقاط حد من حدود الله، ففي ذلك سخط الله، قال الله –تعالى–: (وَتَعَاوَنُواْ عَلَى الْبرِ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُواْ عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ)[المائدة: 2].

فواجب على كل مسلم ان يراعي حدود الله ولا ينتهك شيئا منها بل وعليه ان ينكر على من يتعدى هذه الحدود التي حدها لنا الشرع المطهر، وفي مسند أحمد (عَنِ النَّوَاسِ بْنِ سَمْعَانَ الأَنْصَارِيِّ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ –ﷺ– قَالَ: «ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً صِرَاطاً مُسْتَقِيماً وَعَلَى جَنْبَتَيِ الصِّرَاطِ سُورَانِ فِيهِمَا أَبْوَابٌ مُفَتَّحَةٌ وَعَلَى الأَبْوَابِ سُتُورٌ مُرْخَاةٌ وَعَلَى بَابِ الصِّرَاطِ دَاعٍ يَقُولُ يَا أَيُّهَا النَّاسُ ادْخُلُوا الصِّرَاطَ جَمِيعاً وَلاَ تَتَفَرَّجُوا وَدَاعِي يَدْعُو مِنْ جَوْفِ الصِّرَاطِ فَإِذَا أَرَادَ أَنْ يُفْتَحَ شَيْئاً مِنْ تِلْكَ الأَبْوَابِ قَالَ وَيْحَكَ لاَ تَفْتَحْهُ فَإِنَّكَ إِنْ تَفْتَحْهُ تَلِجْهُ وَالصِّرَاطُ الإِسْلاَمُ وَالسُّورَانِ حُدُودُ اللَّهِ تَعَالَى وَالأَبْوَابُ الْمُفَتَّحَةُ مَحَارِمُ اللَّهِ تَعَالَى وَذَلِكَ الدَّاعِي عَلَى رَأْسِ الصِّرَاطِ كِتَابُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَالدَّاعِي مِنْ فَوْقِ الصِّرَاطِ وَاعِظُ اللَّهِ فِي قَلْبِ كُلِّ مُسْلِمٍ ».

والله تعالى إذا حرّم شيئاً، حرّم كل ما يؤدي إليه، وتلك هي خطوات الشيطان التي جاء التحذير منها في قوله تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ)[النور: 21].

تطلق الحدود على المحرّمات، التي يحرُم الاقتراب منها، ويجب اجتنابها والابتعاد عنها، وفي ذلك قال الله تعالى بعدما نهى المعتكفَ عن مباشرة النّساء: {وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا} [البقرة: 187]. فمجرّد المباشرة حرّمها الله تعالى على المعتكف؛ لذلك قال: {فَلاَ تَقْرَبُوهَا}. الأمر الثاني: تطلق الحدود أيضا على المباحات حتّى لا يتجاوزها العباد، وفي ذلك، قال الله تعالى وهو يتحدّث عمّا يُباح في الطّلاق ولا يتعدّاه المطلِّق: {فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَا فِيمَا افْتَدَتْ بِهِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَعْتَدُوهَا} [البقرة: 229]. فالمباح يجوز فعلُه، بشرط ألاّ يتجاوز الحدّ في ذلك، فيقع فيما نهى الله عزّ وجلّ عنه؛ لذلك قال بعد ذلك: {فَلَا تَعْتَدُوهَا}. ⇦فالحدود المأذون في فعلها لا تُتَعدَّى، والحدود المنهي عنها لا تُقرَب.

فسمّيت هذه المباحات حُدوداً؛ إشعارا بأنّها غاية ما يباح للمسلم، فلا ينبغي له أن يتعدّى حدّه، فيقع في الحرام؛ لذلك كان الصحابة يقولون: "إننا لنترك سبعين بابا من الحلال، خشية أن نقع في باب واحد من الحرام ".

فالحارس لأحكام الشّرع هو الله القدير العليم. فأيّ مؤمن إذن يتعرّض لحدّ يحرسه الله؟! فإنّه الهلاك والبوار.. {وَمَنْ يَتَعَدَّ حُدُودَ اللهِ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ} ..... ظلم نفسه لتعريضها هكذا لبأس الله القائم على حدوده يحرسها ويرعاها، وهذا ظلم أيّ ظلم!

((وحرَّم أشياءَ فلا تَنتَهِكوها))؛ مثل الشرك والزنا والخمر وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرمها الله إلا بالحق والسرقة وأشياء كثيرة، فلا تقعوا فيها؛ فإن وقوعكم فيها انتهاك لها، وعن ابن شبرمة أنه قال: العجَب ممن يحتمي من الحلال مخافة الداء، ولا يحتمي من الحرام مخافة النار!

وأما فيما يتعلّق بالمحرّمات، فقد أرشدنا النبي -ﷺ- إلى تركها فقال:(وحرّم أشياء فلا تنتهكوها)، فدعا إلى ترك المعاصي بجميع أنواعها، وإنما عبّر هنا بلفظ الانتهاك؛ ليبيّن ما عليه حال من يقارف المعاصي من تعدٍّ وعدوان على أحكام الله عز وجل، فأتى بهذه اللفظة للتنفير عن كل ما نهى الله عنه.

إن أخطر ما يهدد العبد يوم القيامة ذنوبه التي ارتكبها ولم يتب منها، ومما ينبغي أن نعلمه؛ أنه ليس كل ذنب يُكتبُ لك به سيئة واحدة، فهناك ذنوب تحبط لك حسنة واحدة، وهناك ذنوب تحبط لك حسنات كثيرة، وهذا ما يعرف بمحبطات الأعمال، أعظم ذنب محبط للأعمال وهو الكفر بالله؛ ويندرج تحته السخرية بالدين، أو كراهية شيء من الدين، وكذلك انتهاكُ محارم الله في السر والخلوة؛ فعَنْ ثَوْبَانَ -رضي الله عنه- عَنْ النَّبِيِّ -ﷺ- أَنَّهُ قَالَ: "لأَعْلَمَنَّ أَقْوَامًا مِنْ أُمَّتِي، يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِحَسَنَاتٍ، أَمْثَالِ جِبَالِ تِهَامَةَ بِيضًا، فَيَجْعَلُهَا اللَّهُ -عز وجل- هَبَاءً مَنْثُورًا"، قَالَ ثَوْبَانُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صِفْهُمْ لَنَا، جَلِّهِمْ لَنَا، أَنْ لا نَكُونَ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لا نَعْلَمُ، قَالَ: "أَمَا إِنَّهُمْ إِخْوَانُكُمْ وَمِنْ جِلْدَتِكُمْ، وَيَأْخُذُونَ مِنْ اللَّيْلِ كَمَا تَأْخُذُونَ، وَلَكِنَّهُمْ أَقْوَامٌ إِذَا خَلَوْا بِمَحَارِمِ اللَّهِ انْتَهَكُوهَا"(رواه البيهقي وابن ماجه).

يخبرنا النبي -ﷺ- أنهم من المسلمين، ولهم من الأعمال الجليلة ما لهم؛ لكنهم جعلوا الله -عز وجل- أهون الناظرين إليهم عندما راقبوا الناس؛ فعملوا في الظاهر ما يخالف الباطن، ووقعوا في محارم الله، ونسوا أو تناسوا أن الله بكل شيء عليم، وأنه يعلم السر وأخفى.

ومحارم الله: هي كل ما حرمه الله -تعالى- من الصغائر والكبائر.

فلماذا هؤلاء انتهكوا المحرمات في السر؟ لأنه ليس في قلوبهم من التقوى ومراقبة الله -عز وجل- ما يكفي لحجزهم عن الحرام؛ فأكلت سيئاتهم حسناتهم، وأصبحت حسناتهم هباء منثورا.

وتأملوا كيف أن الله -تعالى- أراهم حسناتهم كالجبال، ثم جعلها أمامهم هباء منثورا؛ ليزيدهم حسرة.

فبعض الناس قد يظهر أو يتظاهر بالصلاح والاستقامة للملأ، ولكنه إذا اختلى بنفسه لم يراقب الله -تعالى- ولم يستح منه، فوقع في المحرمات.

ومن هؤلاء من تكون خلواته في مشاهدة القنوات الفضائية الفاسدة، والنظر في الإنترنت إلى مواقع الجنس الفاضح، واستعمال أسماء مستعارة للمحادثة والمراسلة مع الأجنبيات، وقد تجد لهؤلاء نصيبًا في الظاهر من الاستقامة؛ في الصلاة والصيام واللباس ومن هنا كان هذا الحديث محذِّراً لهم أن يجعل حسناتهم هباء منثورا يوم القيامة، إن لم يبادروا بالتوبة.

إذَا مَا خَلَوتَ الدهْرَ يَومًا، فَلا تَقُل *** خَلَوتُ، وَلكن قُل عَليّ رَقيب

وَلا تَحْسَبَن اللهَ يَغْفُل ساعةً *** وَلا أنَّ مَا يَخْفى عَلَيْه يَغيب

فالواجب على المسلم أن يحذر من ذنوب الخلوات؛ فالله -تعالى- قد ذم من يستخفي بذنبه من الناس ولا يستخفي من الله، قال -تعالى-: (يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطاً)[النساء:107-108].

ولنعلم بأن ذنوب الخلوات مدعاة لسوء الخاتمة، قال ابن القيم -رحمه الله تعالى-: "أجمع العارفون أن ذنوب الخلوات هي أصل الانتكاسات، وأن طاعة السر هي أصل الثبات".

ولنعلم أن الله -تعالى- قد يبتلي عبده فيهيئ له معصية؛ ليرى هل يخافه بالغيب؟ أم أنه لا يخشاه إلا بحضور الناس فقط؟ قال تعالى: (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ لَيَبْلُوَنَّكُمُ اللّهُ بِشَيْءٍ مِّنَ الصَّيْدِ تَنَالُهُ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ اللّهُ مَن يَخَافُهُ بِالْغَيْبِ فَمَنِ اعْتَدَى بَعْدَ ذَلِكَ فَلَهُ عَذَابٌ أَلِيمٌ)[المائدة:94]؛ فالواجب أن ننتبه من المعصية حين نكون لوحدنا؛ ولذلك كان أجر من دعته امرأة ذات منصب وجمال بعد أن اختلت به الاستظلال تحت العرش يوم القيامة؛ لأنه قال لها: إني أخاف الله.

فالله الله في السرائر؛ فيجب على كل مسلم أن يصلح سريرته، وليكن حرصه على باطنه وسريرته، أعظم من حرصه على ظاهره (يَوْمَ تُبْلَى السَّرَائِرُ * فَمَا لَهُ مِن قُوَّةٍ وَلا نَاصِرٍ)

[الطارق:9-10]؛ فلا يكفي أن تجمع الحسنات، وإنما المهم أن تحافظ على هذه الحسنات حتى لا تذهب هباء منثورا.

إِذَا ما خَلَوْتَ بِرِيبَةٍ فِي ظُلْمَةٍ *** وَالنَّفْسُ دَاعِيَةٌ إِلَى العصيان

فَاسْتَحِ مِنْ نَظَرِ الإِلَهِ وَقُلْ لَهَا *** إِنَّ الَّذِي خَلَقَ الظَّلاَمَ يَرَانِي

((وسكَت عن أشياءَ))؛ أي: لم ينزل حكمها على نبيه -ﷺ-((رحمةً لكم)) من أجل الرحمة والتخفيف عليكم، ((من غيرَ نِسيانٍ)) عدم إنزال الحكم فيها غير نسيان لأحكامها؛ لأن النسيان مستحيل عليه سبحانه تعالى؛ كما قال سبحانه على لسان موسى عليه السلام: ﴿ لَا يَضِلُّ رَبِّي وَلَا يَنْسَى ﴾ [طه: 52]، وإذا كان الأمر كذلك ((فلا تَبحَثوا عنها))؛ أي: لا تسألوا عنها؛ لأن السؤال عما سكت الله عنه يفضي إلى التكاليف الشاقة؛ لأن البحث عنها إن كان في زمن المصطفى-ﷺ-، ربما أفضى إلى تشديد بإيجاب وتحريم، وقد قال -ﷺ-: ((إن أعظم المسلمين جُرْمًا مَن سأل عن شيءٍ لم يحرم، فحُرِّم لأجل مسألته))[رواه البخاري ومسلم]، وإن كان في غيره فهو من التعمُّق والتنطع والبحث عما لا ينبغي، وقد قال -ﷺ-: ((من حسنِ إسلامِ المَرءِ تركُه ما لا يعنيه))[رواه الترمذي].

إذا لم يرد نصّ في حكم مسألة ما، فإننا نبقى على الأصل، وهو الإباحة.

وهذا هو السكوت المقصود في قوله: (وسكت عن أشياء -رحمة لكم غير نسيان- فلا تبحثوا عنها)، إنه سكوت عن إظهار حكمه، ومقتضاه أن يكون باقيا على أصل إباحته، وليس معنى هذا جواز الابتداع في الدين والزيادة فيه، بحجة أنه مسكوت عنه؛ فإن الابتداع ليس مسكوتا عنه، بل هو محرّم كما دلّت الأدلّة على ذلك.

تجبُ المحافظة على فرائض الله التي فرضها على عباده بأدائها على وجهها، منها الصلوات الخمس وأداء الزكاة وصوم رمضان وبعض الناس -عياذًا بالله- يتهاون بانتهاك ما حرَّم الله، ويتعدَّى حدوده ويستهزئ بالشعائر ما دام أن ذلك يُوافق هواه ويُطابق شهوته أو يأتي بها مزاحاً ليُضحك القوم، وهذا قد اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ، واستهزائه خطرٌ عليه ولو كان مزحاً (قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ) ..... وعلى النقيض نرى طرفاً آخرَ يتخذُ الدين تشدداً وعسراً ويُهمل الرفق والتيسير فتجده لا يختار من الرأي إلا ما يُغلّظ على الناس ولا يدع للتيسير مجالاً في كتابه أو مقاله ويُضيّق على الناس في حياتهم ومعاملاتهم رغم أن الله تعالى يقول: (وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ) [الحج: 87]، "ما خُيِّرَ رَسولُ اللَّهِ -ﷺ- بيْنَ أمْرَيْنِ قَطُّ إلَّا أخَذَ أيْسَرَهُمَا، ما لَمْ يَكُنْ إثْمًا، فإنْ كانَ إثْمًا كانَ أبْعَدَ النَّاسِ منه " (متفق عليه).

وما علم هؤلاء كلُّهم أن الخير كله في التزام ما شرع الله وترك ما حرم الله، ففيه الحكمة واليُسر والنجاح فإن الله لم يوجب على عباده شيئاً إلا هو مصلحة لهم في دينهم ودنياهم، فإذا أضاعوا ما فرض الله عليهم فقد أضاعوا مصلحتهم، ولم يُحرّم سبحانه شيئاً على عباده إلا فيه مضرّتهم في الدنيا والآخرة، فإذا وقعوا فيما حرم الله فقد أوقعوا أنفسهم في الضرر (وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنْتُمْ لا تَعْلَمُونَ) [البقرة: 216] يعلم المصالح والمضار العاجلة والآجلة (وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ) [الأعراف: 157]، ويسكتُ الله سبحانه وتعالى عن أشياء رفقاً بعباده فلا يُحرِّمها عليهم حتى يعاقبهم على فعلها، ولم يوجبها عليهم حتى يعاقبهم على تركها –بل جعلها عفواً إذا فعلوها فلا حرج عليهم وإن تركوها فلا حرج، سكت عنها لحكمة لا نسياناً منه –سبحانه وتعالى– : (وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) [مريم: 64]، لذلك السؤال عن مثل هذا تنطّع.

والمتنطّع هو من يبحث عما لا يعنيه، يقول ابن مسعود –رضي الله عنه–: "إياكم والتنطع، إياكم والتعمّق، وعليكم بالتعتيق"، يعني ما كان عليه الصحابة –رضي الله عنهم–.

❁التعمق: المبالغة في الأمر والتشدد فيه

❁العتيق: القديم وما كان عليه الأوائل والمراد التمسك بالقرآن والسنة.

ويدخل في ذلك البحث في أمور الغيب التي أُمرنا بالإيمان بها ولم تُوضّح كيفيتها، فهذا تعمّقٌ منهيٌ عنه؛ لأنه يفضي إلى الحيرة والشك، ففي الوقوف عند حدود الله وأداء ما أوجبه وترك ما حرمه سعادة الدنيا والآخرة وكذلك العبث في خلاف العلماء والمذاهب لاستغلاله للتهاون في الدين أو في الطعن فيه ومخالفته عياذاً بالله....

سأل رجلٌ رسول الله –ﷺ–: أرأيتَ إذا صليتُ المكتوبات، وصمتُ رمضان، وأحللتُ الحلال، وحرمتُ الحرام، ولم أزد على ذلك شيئاً أدخلُ الجنة؟ قال: "نعم" (رواه مسلم).

فمن قام بالواجبات وترك المحرمات دخل الجنة، وقد تواترت الأحاديث بهذا المعنى.. وقال –ﷺ– –في خطبة حجة الوداع–.. "أيها الناس! اتقوا الله، وصلوا خمسكم، وصوموا شهركم، وأدوا زكاة أموالكم، وأطيعوا ذا أمركم تدخلوا جنة ربكم". ففعل الواجبات سببٌ لدخول الجنة، وفعل المحرمات من موانع دخولها، فمن فعل الأسباب وتجنب الموانع استحق دخول الجنة، برحمة الله ووعده الصادق....

الإنسان لم يخلق عبثاً ولن يترك سدى، وإنما خُلق لعبادة الله ونُهي عن معصية الله وأُعدت له دار جزاء يصير إليها، إما دار نعيم، أو دار عذاب، فالجنة أعدت للمتقين، والنار أعدت للكافرين، والجزاء من جنس العمل، (وَلا تُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ) [يس: 54]، (فَأَمَّا مَنْ طَغَى وَآثَرَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا فَإِنَّ الْجَحِيمَ هِيَ الْمَأْوَى * وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى) [النازعات: 40– 41]، هذا ديننا وهذه مبادئه.... فمن طبّقه بتعاليمه المُحكمة نجح وتميّز ديناً ودنياً ودولة وحياة وآخرة.. ومن أعرض عنها (فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ

الْقِيَامَةِ أَعْمَى * قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً*قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى) [طه: 124- 126].

أحكام الله وحدوده قرّرها الله وهو أعلم بها وأحكم لكل زمان ومكان فهي لا تتغيّر حسب الزمان والظروف.... وَإِنَّ مأساتنا اليوم أن البعض بدعوى حرية الرأي والكلمة وللترفيه وتقليد الغير والاقتصاد والنهضة أصبح يتعدّى حدود الله ويتجاوز ثوابت الدين.... التي أجمع عليها علماء الإسلام ووضحّوها بما لا يدع مجالاً للتشكيك لكن هؤلاء يظنون مخالفتها سبباً للتقدّم وما دروا أنهم يُفرّطون بما تميّزوا به في بلادهم من خيرٍ وقيمٍ ومحافظةٍ ودين..

وقد يجدون من يشجّعهم ويؤيدهم على ذلك ليُحقّقوا مصلحة في نفوسهم أو لأنّهم استمرأوا الوقوع في المحرّمات حتى ألفوها فيريدون تعميمها غفلةً في عقولهم وقلوبهم أو سعياً وراء شهواتهم ورغباتهم التي يدعوننا إليها معهم.

ومما سبق يتبين لنا معاني تلك الألفاظ الأربعة، والتي ترشدنا إلى القيام بحقوق الله ولزوم شريعته، مع العفو عما سُكت عنه، فدخل الدين كله في تلك الكلمات القليلة الجامعة المانعة.

المراجع:

1. شرح حديث: إن الله تعالى فرض فرائض فلا تضيعوهاعبد العال سعد الشليّه.
2. اسم الكاتب: إسلام ويب: شرح الأربعين النووية
3. لا تتعدوا حدود الله ومحرماته: عبد المحسن بن عبد الرحمن القاضي.
4. انتهاك محارم الله في السر: محمد بن إبراهيم النعيم.
5. الأربعين النووية شرح الشيخ ابن عثيمين رحمه الله بتصرف.